



رؤية العالم في المثل العربي من بصر العين إلى بصيرة العقل

ويرتبط بهذا التعريف للمثل
مصطلحان آخران هما:

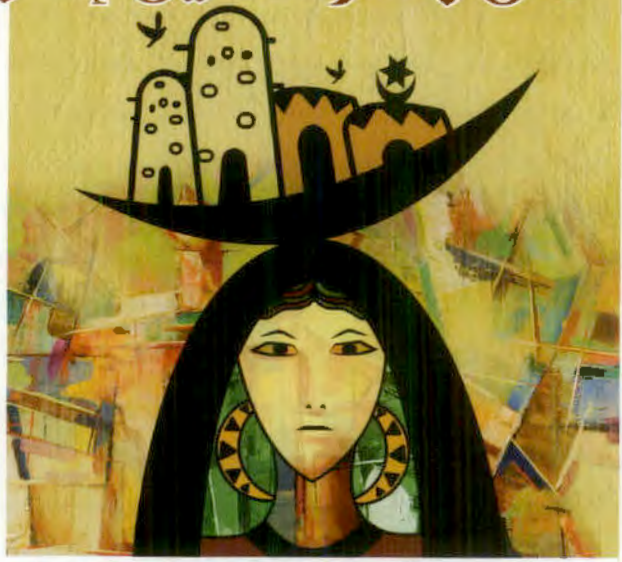
المورد: يشير إلى السبب في صياغة المثل
بداية ثم ذيعه بين الناس؛ فهو بمثابة الموقف
الذي شهد في جانب منه خروج هذا المركب
اللغوي الموجز^(٢).

وفي هذا المورد نتابع المادة القصصية
المفسرة للأمثال، تلك المادة التي تشغل مساحة
مهمة في المكتبة القصصية العربية التراثية،
وكانت ملهمة للرواية التاريخية المعاصرة التي
ستظل تهل منها على الدوام مع تعدد الوسائط
المهتمة بالدراما التاريخية اليوم ما بين قنوات
مرئية أو مسموعة أو طباعية تنتمي إلى تيارات
تعبيرية تتطور يوما بعد يوم.

المضرب: يعبر عن السياق الذي تستدعي
مفرداته هذا القول الموجز من أجل التبرير
والإقناع وتركيز الانتباه على شيء بعينه^(٣).

ويمكن القول: إن استلزام المادة التراثية
اليوم في أعمال درامية جديدة يكاد يكون
نوعا من (مضرب المثل)، أو هو مؤشر للعلاقة
الجدلية التي تربط بين المورد والمضرب عبر
التاريخ. فكل مضرب للمثل هو إعادة قراءة
لمورد المثل، فالمستقبل يعيد قراءة التاريخ الذي
سبق أن استشرف ملامحه في بنيته الرمزية
المختزلة لحكمته.

ومن أشهر مصنفات الأمثال في تراثنا



المثل: مصطلح يدل على جنس أدبي شائع في تراث الأمم
والشعوب على اختلاف عصورها ومراحلها، والمثل في اللغة
العربية: هو جملة من القول مقتطعة من كلام أو مرسلّة
بذاتها تنتقل من السياق الذي وردت فيه أول مرة إلى آخر
مشابه له دون تغيير؛ لأن الأصل في المثل هو التشبيه المعتمد
على المحاكاة.



د. أحمد يحيى علي محمد (*) - مصر

(*) أستاذ مشارك في الأدب والنقد، كلية الألسن، جامعة عين شمس، مصر.

العربي القديم:

الأمثال: أبو عبيد بن سلام

الأمثال: المفضل الضبي

جمهرة الأمثال: أبو هلال العسكري

مجمع الأمثال: الميداني (أبو الفضل

أحمد بن محمد بن إبراهيم)، ومن هذا

الكتاب يأتي هذا النموذج «أبصر من

زرقاء اليمامة» الذي تناولناه بالشرح

والتحليل

«أبصر من زرقاء اليمامة»

واليمامة اسمها، وذكر الجاحظ أنها

كانت من بنات لقمان بن عاد، وأن اسمها

عنز، وكانت هي زرقاء... وهي امرأة

من جديس... كانت تبصر الشيء على

مسيرة ثلاثة أيام، فلما قتلت جديس

طسماً خرج رجل من طسم إلى حسان

بن تبع، فاستجاشه، ورغبه في الفنائم، فجهز إليهم

جيشاً، فلما صاروا من جوة على مسيرة ثلاث ليال

صعدت الزرقاء، فنظرت إلى الجيش، وقد أمروا أن

يحمل كل رجل منهم شجرة يستتر بها؛ ليلبسوا عليها،

فقال: يا قوم قد أتكم الشجر، أو أتكم حميراً فلم

يصدقوها، ففالت على مثال رجز:

أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ دَبَّ الشَّجَرُ

أَوْ حَمِيرٌ قَدْ أَخَذَتْ شَيْئاً يُجَزُّ

فلم يصدقوها، ففالت: أكلف بالله أرى رجلاً

ينهس كتفاً، أو يخصف النعل فلم يصدقوها، ولم

يستعدوا حتى صبحهم حسان، فاجتاحهم، فأخذ

الزرقاء، فشق عينيها...^(١)

إن أول ما قد يلت نظرنا في صيغة المثل أنها عبارة

عن تركيب لغوي ناقص بحاجة إلى مجهود ذهني منا

لنكمله: فيا ترى ما هذا الناقص؟ أهو اسم؟ أم فعل؟

أم استفهام مثلاً؟ وإذا أكملناه كما نراه

فما شكل الجملة وقتها؛ هل ستصبح

تركيباً إنشائياً استفهامياً؟ هل ستصير

جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر؟ وفي

الحالة الأولى تصير بنية المثل على هذا

النحو: من أبصر من زرقاء اليمامة؟

أما عن الثانية فإن المسند إليه

(المبتدأ) يبدو متنوعاً في تشكيله من

حيث الجنس من جانب (مذكر أو

مؤنث)، ومن حيث العدد من جانب آخر

فقد يكون مفرداً أو جمعاً.. على سبيل

المثال:

أنا أبصر من زرقاء اليمامة.

هي أبصر من زرقاء اليمامة.

نحن أبصر من زرقاء اليمامة.

مع وجود احتمالية أخرى تعتمد

على النفي؛ وبذلك تؤكد أحقية هذا الرمز بالتفضيل

المطلق، فيكون البناء اللغوي هكذا: لا توجد ذات أبصر

من زرقاء اليمامة.

ويبدو أن الراوي حريص على إدخال القارئ في

لعبة جدل مع هذه الأنثى/ الزرقاء؛ مبعث ذلك القرينة

أو الصفة (أبصر)، التي تتيح لها مكانة أفضل مقارنة

بالغير (فرد/ جماعة)، وتعطي في الوقت نفسه إشارة

إلى أن هذه الأفضلية تعد بمثابة حكم من قبل الجماعة

عليها له حيثيات أدت إليه، يمكن لنا أن نطالعها في

التشكيل القصصي المفسر لهذا المثل؛ كأنه يجب عن

سؤال: لماذا وصلت المرأة إلى هذه المكانة التي سمت بها

على من حولها؟

وتأتي البداية عبارة عن لقاء تعارفي بين المتلقي

وزرقاء اليمامة، يسعى الراوي من خلاله إلى تقديم

بعض الإشارات التي تسهم في كشف جانب من





إن الزرقاء نموذج لكل إنسان يعيش لحظة مسؤولية تتمثل في عملية الإعداد المطلوبة لمواجهة خطر محقق يوشك أن يقع، فجاء نداؤها التحذيري تعبيراً عن نموذج إنساني مثالي يرى أن عليه دوراً يتجاوز أفق الطموحات الذاتية الفردية الضيق إلى الانشغال بجماعتها/قبيلتها التي قد تكون رمزا لفكرة الوطن في محاولة للوصول بها وبه إلى أفضل صورة ممكنة.

إن الزرقاء - في ضوء هذه الحالة - شأنها شأن كثير من دعاة الإصلاح بين جماعاتهم غالباً ما يواجهون بمعوقات تخرج من داخل هذه الجماعات نفسها، غير أن هذه الموانع قد لا تعني - على المستوى النفسي - بأساً يؤدي في النهاية إلى توقف؛ فالزرقاء الحريصة على مصلحة جماعتها بدأت في تفعيل قرينة أخرى تتمتع بها إلى جوار القرينة (أبصر) ألا وهي القرينة (مبدعة):

أَفْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ دَبَّ الشَّجَرُ

أَوْ حَمِيرٌ قَدْ أَخَذَتْ شَيْئاً يُجْزِرُ

ويبدو أن القرينة (مبدعة) لم تعمل عملها فيما أرادت الذات المؤنثة الوصول إليه، فعمدت إلى الاتصاف بقرينة أخرى (ملحة) موظفة أسلوب التكرار، ولكن بخطاب عادي يناسب ذوق الجماعة، «فقالت: أحلف بالله أرى رجلاً ينهس كتفاً، أو يخصف النعل. فلم يصدقوها».

إن الصراع بين الذات التي تنطق بروح القبيلة (صوت الأنثى)، والقوم الذين يتخذون القرار في هذه القبيلة يتجاوز بالقرينة (أبصر) منطقة الرؤية الحسية البصرية إلى ما هو أبعد؛ فمسافة الرؤية التي تصل إلى ثلاثة أيام وتضفي على الذات المؤنثة طابعاً أسطورياً ليست إلا إشارة إلى تلك الشخصية التي تمتلك رؤية بعيدة المدى تسعى إلى توظيفها في سبيل صياغة مستقبل أفضل للجماعة، وما هذا التركيب

شخصيتها، وفي هذا اللقاء نجد بيننا وبينها نوعاً من الألفة، قائماً على التشابه، فهي امرأة من بني البشر، له اسم ونسب وعائلة، لكن سرعان ما يتجاوز الراوي بالمرأة هذه المنطقة الواقعية إلى منطقة أخرى تتميز فيها بطابع خيالي أقرب إلى الأسطوري، يشير إليه التركيب: «كانت تبصر الشيء على مسيرة ثلاثة أيام» وهو الذي يعد سبباً مباشراً في إنتاج هذا المثل: «أبصر من زرقاء اليمامة: إن بصرها يتجاوز حدود المعقول إلى درجة أقرب إلى اللامعقول».



ثم تأتي القصة المفسرة للمثل من الداخل لتكشف جوانب من مأساة إنسان يسعى إلى توظيف قدراته في محيط ليس مهياً بعد للإفادة من إمكانات أبنائه الحقيقية؛ فتكون النتيجة فشلاً وسقوطاً:

«... خرج رجل من طسم إلى حسان بن تبع، فاستجاشه ورغبه في الفئائم، فجهز إليهم جيشاً، فلما صاروا من جوة علي مسيرة ثلاث ليال سعدت الزرقاء، فنظرت إلى الجيش، وقد أمروا أن يحمل كل رجل منهم شجرة يستتر بها؛ ليلبسوا عليها، فقالت يا قوم قد أتكم الشجر، أو أتكم حمير، فلم يصدقوها».

الإسنادي المعتمد على النفي، «فلم يصدقوها» إلا إشارة إلى أصحاب الرؤى القاصرة الذين لا ينظرون أبعد من اللحظة الحاضرة التي يحيونها؛ فيقفون حجر عثرة في طريق دعاة الإصلاح.

إن زرقاء اليمامة تعد من هذا النوع الإنساني الذي يعرض على تنمية قدراته حتى يصل بها إلى درجة قصوى رغبة منه في أن يكون نموذجاً إيجابياً يمكنه الإسهام بما لديه بشكل بناء، وقد يتجاوز هذا الإسهام نطاق الجماعة المحلية المحدود إلى الجماعة البشرية عموماً، فينتقل بوجوده من الحيز الزماني والمكاني الضيق إلى حيز أوسع، عندما يتحول إلى رمز يدخل في علاقة جدلية تقوم على المقارنة بينه وبين كل قارئ، وتعبّر عنها بنية الاستفهام: (من أبصر من زرقاء اليمامة؟). والفضل يعود إلى الطبيعة المجاوزة للقريّة (أبصر) التي تتعدى منطقة الرؤية البصرية إلى رؤية مبنية على العلم يمكن تسميتها بالرؤية الذهنية.

ومع أن النتيجة التي آلت إليها البنية القصصية المفسرة: «ولم يستعدوا حتى أصبحهم حسان، فاجتاحهم، فأخذ الزرقاء، فشق عينيها»، نجد أن ثنائية (المنطق واللامعقول) أو (الحقيقة والخرافة) ما هي إلا إشارة إلى صراع له صفة الاستمرار بين الواقع من جانب والمثال من جانب آخر، وبين المعوقات التي تشوب اللحظة الحاضرة من جانب والأحلام المرجو تحقيقها مستقبلاً من جانب آخر، وتأتي الأنثى في مورد المثل؛ أي القصة التي تفسره تعبيراً عن أحد طرقي الصراع.

من هذا النموذج الذي تمثله شخصية الزرقاء يتضح إدراك الوعي الجمعي العربي لأهمية تأسيس النموذج القدوة عبر رسالة فنية كانت المرأة بطلتها تبحث هذه الرسالة عن مستقبلين يرون في الزرقاء مثلاً فيه قيمة إنسانية عامة؛ بوصفه يؤسس لما يمكن تسميته بـ (الفرد المبدع) الذي يجعل من قدراته الذاتية وسيلة يعتمد عليها في إعادة تشكيل الجماعة وفق رؤية ذهنية تعبر - بدرجة ما - عن مجتمع مثالي يطمح إلى أن يكون حقيقة، وقد شكل له صورة في مخيلته؛ ومن ثم فهو يسعى إلى تنفيذها بقراءة مفردات الواقع المحيط؛ إن الزرقاء بمثابة الصوت المحذر الذي يركز عدسته على مناطق الضعف في جسد الجماعة التي يمكن أن تُخترق منها.

وفق الرؤية السابقة يتبين أن الفراغ النصي الكائن في تشكيل المثل السابق يمنح المتلقي حضوراً أكبر داخل هذا النص الفني؛ بفضل الطبيعة الجدلية المترتبة عليه، التي تجعله في حالة مقارنة دائمة بينه وبين هذا النموذج (المرأة) الذي يتجاوز دلالته ليصبح بمثابة نموذج ثقافي مهما بلغت قيمته فلا بد من تجاوزه إلى ما هو أفضل منه؛ لذا جاء الحذف النحوي في بنية المثل تجسيدا لرغبة فنية في كسر حدة الجمود المؤثرة سلبيًا في الواقع، وتجاوز الثابت الجمالي المتضمن قنًا - أي صيغة المثل والقصة المفسرة لها التي تبقى كما هي لا تتغير مع مرور الزمن - بما يجعل إيقاع الجماعة في حالة حراك مستمر، واتجاه أنساقها الفعلية في حالة صعود دائم ■

الهوامش

وخصف يعنيان على التوالي: أكمل، وخرز (خاط)، انظر: القاموس المحيط: مادة (نفس)، (خصف).

(٣) انظر: السابق، ص ١٩٢، (٤) الميداني، مجمع الأمثال، الجزء الأول، ص ١٥٥، ١٥٦، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت. ونفس

(١) انظر: عبد الحميد يونس، معجم الفلكلور، ص ١٩٢، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م، مكتبة لبنان، بيروت.. (٢) انظر: السابق، ص ١٩٢.



الأصم..!

— آمال لواتي - الجزائر —

داعب لحيته القصيرة، أخذ الجريدة التي كانت معه، ملأ صفحة التسلية بخطوط متداخلة غير مفهومة، مر على كل الصفحات بتمتة ساخرة، ثم طوى الجريدة، صنع منها زورقا ورقيا لعله يريد أن يبحر يوما كالسندباد، راح يقلب مقلتيه هنا وهناك، كأنه ينتظر جليسه المعتاد ليتقاسما الحديث عن السياسة، عن الفكر، عن الفن، عن أي شيء...

اتجه إليه محدثه مرة أخرى، ملعاً على مخاطبته، مستفسراً عن برودة أعصابه ومشاعره تجاهه وتجاه الآخرين، وتجاهله الفامض لثورته أمامه إزاء هذا التغير المفاجئ بعد غيابه.

رغم أنه لم يسمع احتجاجه وأسئلته، قال له: ماذا تقول يا محدثي؟ إني لا أكاد أسمعك، فالبعد بيني وبينك، بعد لا تقيسه السنون، ولا تدركه الحقيقة!..

اقترب منه أحد رواد المقهى العتيق بثيابه الأنيقة، وعطره السديمي، اتخذ زاويته المعتادة، جلس على طاولته، ألقى التحية ولكن لم يبال به أحد..!

اتكأ على الكرسي حيناً، طوى ساقاً على ساق حيناً، قلم أضافره بأسنانه القلقة.. وضع يده على خده الخجول ماسحاً، وقد رشه لعاب محدثه المتناثر كرزاذ في فصل قاحل، والذي مازال يتكلم، وقد اشتدت حدة كلامه. وراح يحدق فيه ذاهلاً..!

رغم أنه اعتاد أن يردش معه كلما التقى به، فهما من زوار هذا المقهى الدائمين، ويحدث أن يتحاورا كلما اجتمعا على ارتشاف قهوة قبل ذهابهما إلى مشاغلهم، وإن كانت لا تجمعهما علاقة صداقة أو قرابة أو عمل..

هدأ المتحدث قليلاً، فك بعض أزرار قميصه كأنه كاد يختنق من أنفاس سيجارته الرمادية.. تنفس الآخر بتأفف.. احتسى قهوته حتى الثمالة،

كنت صحافيا شابا يغمرنى الأمل والطموح، دخلت عالم الكتابة الصحفية وشعاري في كل مقالاتي: الإصلاح والتغيير من أجل مستقبل آمن ومؤمن.

وكان قلبي حاداً قاطعاً كالسيف، باترا لكل الأفكار المريضة والمشوهة، والسلوكيات الملتوية والشاذة. ولما اشتدت زوبعة واقعنا السياسي والاجتماعي، واختلطت فيه كل الموازين والقيم، وأصبح كل واحد يتناول على الآخر بشتى النعوت والتهم؛ كتبت آخر مقال عنوانه: الفتنة هي اختلاط الحق بالباطل..!

أثار ضجة عنيفة، إثرها تلقيت تهديدات بالموت من طرف مجهولين يدعون أنني شبهتهم بمطاردي الجبال، وبالصعاليك والخوارج... وبعدها فصلت من الجريدة دون شرح أو مبرر. فأدركت أيضاً أنني حدت عن مداعبة عقول الناس، وتخديرهم بالكلمات الجوفاء، وتضليلهم عن فهم واقعهم المر، انزويت في منزلي بين رفوف مكتبتي الصغيرة متتبعا وحي القلم عبر الأجيال والعصور، يساورني الخوف واليأس حيناً، والصبر والأمل حيناً آخر..! إلى أن داهمني في ليلة داجية زوار ملثمون قيدوني بحبال غليظة، أغمضوا عيني بعصابات سوداء، ثم يأبھوا بصراخ زوجتي المسكينة التي لم يمر على زواجنا إلا بضعة شهور، وقادوني إلى حيث لا أدري؟!

وجدت نفسي في إحدى المغارات العجيبة، فيها كل مستلزمات الحياة، وليس فيها مبررات الحياة، عانيت البرد والجوع، والظلام، والألم، والعزلة والقيء، أنتظر محاكمة أميرهم ليحكم علي بالإعدام لأنني لم أفصل في جدلية العنف والسلم في بلدي، بل لأنني في مضامين مقالاتي كنت رافضاً للعنف، محباً للسلم، بل اتهموني بالردة والتعلق لما يسمونهم بالطغاة..!

فأذناي قد صمتا من ضجيج أفكارى المبعثرة في ساحة أعماقي، المملوءة نتوءات، وحفرأ منذ أن سكنتها الآلام والهموم، من ثثرة نفسي التي دمرتني بفلسفتها وفتاويها..

قد صمتا من احتجاج الأرض وتذمرها بعد أن جفت واحترقت وتعفنت تربتها بالجثث والدماء..

قد صمتا من دقائق الزمن الرهيبة الناعية بالمآسي والدمار... فاعذرني يا أخي! لست نافرا منك أو لا مباليا..!

نظر إليه بإعجاب واستغراب: إنه كالفيلسوف، والفلاسفة عادة يتأملون ثم يتكلمون، لا.. بل كالشاعر، فالشعراء يسبحون، ويتألمون، ثم يشعرون.

فقاطع سيل خواطره قائلاً: أعرفت أنني أصبحت أصم لا أسمع شيئاً؟!

قطب المحدث حاجبيه، وقد بدت عليه ملامح الحزن والخذلان مشيراً بإصبعه إلى أذنه مستكراً صممه..!

ضحك في أعماقه مرة أخرى قائلاً: إنني لست متألماً، بل إنني جد سعيد، فماذا فهمت من أصداء الحياة، وقد كنت ملكاً بحواسي، إنني أعيش الانزواء والصدق مع نفسي، فما جدوى أن تعيش متوجعاً في كل اللحظات، ترى كل ما لا يرى وتسمع كل ما لا يسمع! لكن لا تجرؤ على الكلام..!

إنني غارق في لجج الصمت رغماً عني، إنني لست هروبياً، أو رومانسياً، أو سلبياً، إنني أفسر ذهاب الناس، وإيابهم، وركضهم في المسافات الطويلة بحثاً عن أي شيء، وهم خائفون من السؤال، من التأمل، من الانتظار، من الرفض، من التغيير، من الكلام...

اقترب منه أكثر محولاً كرسيه إلى جانبه مشيراً إليه متسائلاً؟ فهم أنه يريد أن يعرف حقيقة أمره..!

صمت بعض الشيء... تهد تهداً طويلاً وعميقاً.. وبدأ يروي قصة صممه: